JOURNAL OF ISLAMIC CIVILIZATION ANDCULTURE(JICC)
Volume 09, Issue 01 (Jan-June , 2026)

ISSN (Print):2707-689X
ISSN (Online) 2707-6903
Issue: https://www.ahbabtrust.org/ojs/index.php/jicc/issue/view/20
URL: https://www.ahbabtrust.org/ojs/index.php/jicc/article/view/266
Article DOI: https://doi.org/10.5281/zenodo.24196739

Title The Aesthetics of Qur'anic Expression in the Verse of Allah Almighty: "And It Was Said, 'O Earth, Swallow Up Your

Author (s): *Dr. Habib Ullah Khan,** Dr. Bakht Zubair,***Dr. Syed Abdussalam Bacha*

Received on: 18 September, 2025
Accepted on: 09 January , 2026
Published on : 25 march , 2026

Citation: *Dr. Habib Ullah Khan,** Dr. Bakht Zubair,***Dr. Syed Abdussalam Bacha* ," The Aesthetics of Qur'anic Expression in the Verse of Allah Almighty: "And It Was Said, 'O Earth, Swallow Up Your Water…'": A Lexical and Rhetorical Study '":" JICC: 9 no, 1 (Jan-June 2026):51-78

Publisher: Al-Ahbab Turst Islamabad

Click here for more

جماليات التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ...﴾

دراسة معجمية وبلاغية

The Aesthetics of Qur'anic Expression in the Verse of Allah Almighty: "And It Was Said, 'O Earth, Swallow Up Your Water…'": A Lexical and Rhetorical Study

* *Dr. Habib Ullah Khan*

** *Dr. Bakht Zubair*

*** *Dr. Syed Abdussalam Bacha*

Abstract

This research examines the lexical and rhetorical structure of the Qur'anic verse: "And it was said, 'O earth, swallow your water, and O sky, cease.' And the water was made to recede, and the matter was decided, and it settled upon al-Jūdī, and it was said, 'Away with the wrongdoing people.'" It is a verse brief in wording but immense in meaning, containing exquisite imagery of the end of the Flood and revealing, in its words and structures, extraordinary precision in the choice of every word and its placement in its proper context.

The study treats the principal lexical items in the verse lexically and shows the precise semantic implications they carry, discussing the meanings of "it was said," "O," "earth," "swallow," "your water," "sky," "cease," "was made to recede," "the water," "the matter was decided," "settled," "al-Jūdī," "away," and "the wrongdoing people." It also examines the effect of definiteness and indefiniteness, annexation, ellipsis, explicit mention and omission, and passive construction in directing and securing the meaning.

The study then moves to the rhetorical dimension, uncovering the secrets of composition in the verse, especially the significance of conjunction with wāw, the appropriateness of mentioning earth before heaven, the choice of "swallow" over near-synonyms, the choice of "cease," the attribution of water to earth in "your water," the expressions "the water was made to recede" and "the matter was decided" in the passive, the choice of "settled" over alternatives, and the mention of "for the wrongdoing people" at the conclusion of the story.

It also highlights the various rhetorical arts contained in the verse, including brevity in both its types, partial paronomasia between "swallow" and "cease," antithesis between earth and heaven, parallelism between the two commands, double entendre and ambiguity in "away," and al-irdāf, allusion, beautiful causation, al-tashīm, and precaution, along with good arrangement, consolidation, harmony, coherence, beautiful clarity, and indirect expression.

The research concludes that the lexical and rhetorical structure of this verse are closely intertwined, such that the precision of wording cannot be separated from precision of meaning, nor the beauty of style from the firmness of composition. Every word was chosen for a particular meaning, and every structure was fashioned to achieve a semantic and rhetorical purpose at once. The verse thus discloses a major aspect of Qur'anic

*Assistant Professor, Faculty of Arabic, International Islamic University, Islamabad.

**Lecturer, Department of Arabic, Islamia College, Peshawar.

*** Lecturer, Department of Arabic, Islamia College, Peshawar.

inimitability: the combination of few words with abundant meanings, precise expression with powerful imagery, and beautiful composition with complete signification, so that the verse, despite its few words, encompasses multiple meanings and rhetorical arts. The conclusion also notes the harmony, coherence, and beautiful clarity that characterize its wording.

Keywords: *characterize, rhetorical, coherence, signification*

خلاصة المقال

يتناول هذا البحث البناء المعجمي والبلاغي في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1]، وهي آية قصيرة الألفاظ، عظيمة المعاني، اشتملت على تصوير بديع لنهاية الطوفان، وكشفت في ألفاظها وتراكيبها عن دقة بالغة في اختيار كل كلمة ووضعها في موضعها المناسب

وقد عالج البحث الألفاظ الأساسية في الآية معالجة معجمية وبيّن ما تحمله من دلالات دقيقة، فتناول دلالة ألفاظ: "قيل"، و"يا"، و"أرض"، و"ابلعي"، و"ماءك"، و"سماء"، و"أقلعي"، و"غيض"، و"الماء"، و"قضي الأمر"، و"استوت"، و"الجودي"، و"بعدًا"، و"القوم الظالمين". كما وقف عند أثر التعريف والتنكير والإضافة والحذف والذكر والبناء للمفعول في توجيه المعنى وإحكامه

ثم انتقل البحث إلى الجانب البلاغي، فكشف عن أسرار النظم في الآية، ولا سيما سر العطف بالواو، ومناسبة تقديم الأرض على السماء، واختيار "ابلعي" بدل الألفاظ القريبة منها، واختيار "أقلعي"، وإضافة الماء إلى الأرض في "ماءك"، والتعبير بـــ"غيض الماء" و"قضي الأمر" بالبناء للمفعول، واختيار "استوت" على غيرها من الألفاظ، وذكر "للقوم الظالمين" في خاتمة القصة

كما أبرز البحث ما اشتملت عليه الآية من فنون بلاغية متعددة، منها الإيجاز بنوعيه، والجناس الناقص بين "ابلعي" و"أقلعي"، والطباق بين الأرض والسماء، والمقابلة بين الأمرين، والتورية والإيهام في "بعدًا"، والإرداف والإشارة وحسن التعليل والتسهيم والاحتراس، إلى جانب حسن النسق والتمكين والائتلاف والانسجام وحسن البيان والتعريض

ويخلص البحث إلى أن البناء المعجمي والبلاغي في هذه الآية متداخلان تداخلًا وثيقًا، بحيث لا يمكن فصل دقة اللفظ عن دقة المعنى، ولا جمال الأسلوب عن إحكام النظم؛ فكل لفظة اختيرت لمعنى مخصوص، وكل تركيب جاء لتحقيق غرض دلالي وبلاغي في آن واحد، ومن ثم تكشف الآية عن جانب جليل من جوانب الإعجاز القرآني، يتمثل في اجتماع قلة الألفاظ مع كثرة المعاني، ودقة التعبير مع قوة التصوير، وجمال النظم مع تمام الدلالة، حتى غدت الآية في ألفاظها القليلة حاوية لمعانٍ وفنون متعددة، كما أشار البحث في خاتمته إلى ما تميزت به ألفاظها من الائتلاف والانسجام وحسن البيان

معاني كلمات الآية الكريمة بالتفصيل:

١- الواو الواقعة في بداية الآية الكريمة هي حرف عطف لمطلق الجمع، قال الإمام سيبويه: "قولك مررت برجلٍ وحمارٍ، كأنك قلت مررتُ بهما، وليس في هذا دليل على أنه بدأ بشيءٍ قبل شيءٍ، ولا بشيءٍ مع شيءٍ"[2]

وقال ابن مالك في التسهيل: "وكونُها للمعية راجحٌ وللترتيب كثيرٌ، ولعكسه قليلٌ"،[3] وليس بمنافٍ لقول الإمام سيبويه كما توهَّمه بعض العلماء، فكونها للمعية تعطف الشيء على مصاحبه، كقوله -تعالى-: [فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ][4]، وكونها للترتيب تعطف الشيء على سابقه كقوله -تعالى-: [وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ][5]، ولعكسه تعطف الشيء على لاحقه كقوله -تعالى-: [كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ][6]، وقد اجتمعا -أي السابق واللاحق- في قوله -تعالى-: [وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا][7]

[وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ] عطف السابق على اللاحق، [وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ] عطف اللاحق على السابق

إذا تقرَّر ذلك، فإذا قلت: قام زيدٌ وعمرو، احتمل المعية والترتيب وعكسه

٢- وأمّا "قيل": فهو فعل ماضٍ بُني للمفعول مشتق من القول وهو: اللفظ المركب من الحروف، المستعمل مفردًا كان أو جملةً[8]، و لم يذكر الاستعمال، ولا بد منه إذ المهمل لا يطلق عليه "قول"، قال -تعالى-: [مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ][9]، فالقول أخص من اللفظ، ولهذا كان الأسدُّ من حد القول اصطلاحا هو: القول المفيد بالقصد

وهذا هو المعنى الحقيقي للقول، وقد يطلق مجازًا على ما في النفس كقوله -تعالى-: [وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ][10]

ويطلق على الاعتقاد نقول: فلان يقول بقول الشافعيِّ، ومنه حديث ابن المسيب، وقد قيل له: ما تقول في عثمان وعلي -رضي الله عنهما-، فقال: أقول ما قولّني الله، ثم قرأ: [وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ][11]، يقال: قولّني أي: علّمني ما أقولُ

وعلى الدلالة نحو:

امتلأ الحوضُ وقال قَطْنِي مهلًا رويدًا قد ملأت بطني[12]

أي: امتلأ الحوض تمامًا حتى كأنه تكَلَّم فقال: كفاني ما صببت في جوفي

٣- والعرب تجعل "القول" عبارة عن جميع الأفعال، وتطلقه على غير الكلام واللسان، فتقول: قال بيده أي: أخذ، وقال برجله أي مشى، وقالت له العينان سمعًا وطاعةً أي: أومأتْ، وقال بالماء على يده أي قلب، وقال بثوبه أي رَفَعه، وكل ذلك على المجاز والاتساع

ومقتضى قول العلامة الزمخشري ومن تبعه: حمله في هذه الآية الكريمة على الإرادة مجازًا واتساعًا، فعليك بعبارة العلامة الزمخشري: "نداء الأرض والسماء بما يُنادي به الحيوان المميّز على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله: "يَا أَرْضُ وَيا سماء" ثم أمرهما بما يؤمرُ به أهل التمييز والعقل من قوله: "ابلعي ماءكِ وأقلعي" من الدلالة على الاقتدار العظيم، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة، لتكوينه فيها ما يشاءُ، غير ممتنعة عليه، كأنها عقلاء مميزون قد عرفوا عظمته وجلالتَه، وثوابه وعقابه وقدرته على كلِّ مقدور وتبيَّنُوا تحتّم طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابُونه ويفزعون من التوقُّف دون الامتثال له، والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث، فكما يرد عليهم أمرُه كان المأمور به مفعولًا لا حبسَ ولا إبطاء"[13]

قول العلامة مردود بوجوه:

أحدها: أن القدرة صالحة لذلك فلا مانع

ثانيها: أنه أعظم في القدرة وأبلغ في العظمة، وأقوى في الحجة، والمقام يقتضي ذلك، وما كان كذلك فهو أولى بالترجيح وأحرى بالتصحيح

ثالثها: أنه الظاهر ولا دليل يصرفه عن ظاهره، فالعمل بالحقيقة فيه هو الصواب، وقد صرَّح الناس قديمًا وحديثًا بأن الله –تعالى- لا يجوز أن يتكلم بشيء، ويعني به خلاف ظاهره

رابعها: أن الحقيقة في الكلام هي الأصل فإذا تعارض المعنى الحقيقي والمجازي، فالحقيقي أولى؛ لأن المجاز خلاف الأصل كما هو مقرر عند أئمة الأصول، ولهذا لما اختلف الفقهاء في لفظ النكاح هل هو حقيقة في العقد مجاز في الوطء؟ كما ذهب إليه الإمام الشافعي أو بالعكس كما ذهب إليه غيره، فلو حلف على النكاح و لم ينو شيئاً فإنه يحمل على العقد عنده؛ لأنه حقيقة لا على الوطء؛ لأنه مجاز فيه

وكذا لو قال لزوجته: أنت طالق يوم يقدم زيد، فقدم ليلًا فإنه لا يقع الطلاق على الصحيح، بل الصواب؛ لأن اليوم حقيقة ما بين الفجر والغروب

ثم إنه ينبغي أن يُعلم أن من ادّعى صرف لفظ عن ظاهره وعيَّن له مجازاً لم يتم له رعاية ذلك إلا بعد أربع مقدمات:

أحدها: بيان امتناع إرادة الحقيقة

ثانيها: بيان صلاحية اللفظ للمعنى الذي عيَّنه وإلا كان كاذبًا على اللغة

ثالثها: بيان ذلك المحمل إن كان له عدّة مجازات

رابعها: الجواب عن الدليل الموجب لإرادة الحقيقة، فما لم يقم بهذه الأمور الأربعة كانت دعواه صرف اللفظ عن ظاهره دعوى باطلة

وهنا إرادة الحقيقة ليست متعذرة فلأجل هذا لا يُراد من القول المعنى المجازي، بل المراد منه المعنى الحقيقي، وغاية ما احتج به من حمل الآية الكريمة على المجاز، أن الأرض والسماء من الجماد، والجماد لا يتوجه إليه خطاب ولا أمر؛ لأنها لا تعقل، وهذا غلط ظاهر ممنوع بالكتاب والسنة وإجماع من يعتد به من علماء الأمة

٤- وإذا عرف ذلك فنقول: أصل هذا الفعل "قَوَلَ" فلما فتحت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفًا، فلما بُني للمفعول هو وسائر أخواته من معتل العين الواوي واليائي، جرت للعرب في ذلك ثلاث لغات:

الأولى: كسر فاء الكلمة كسرًا خالصًا فتنقلب الألف ياءً فنقول: قيل وبيع، وهذه لغة الحجازيين: قريش ومن جاورهم، وربّما قرأ بها أكثر القرّاء

الثانية: إشمام الكسرة الضم[14]، وهي لغة كثير من قيس وعامَّة أسد، وقرأ بها الإمام الكسائي

الثالثة: إخلاص ضمة الفاء فتنقلب الألف واواً، فنقول: قُول وبُوع، وهي لغة فقعس ودبير وهما من فصحاء بني أسد

٥- فإن قيل: فما الباعث على حذف الفاعل في هذا الباب وإقامة المفعول مقامه؟

قلت: لذلك بواعث وهي:

1- الإيجاز والاختصار؛ لأن الآية الكريمة تحتوي على المعاني الكثيرة التي عُبِّرت عنها بألفاظ قليلة جدًّا دون إخلال في المعنى والمفهوم

2- والتعظيم والإجلال، أي: لا يصدر عن غيره مثل هذا المقال، كما أشار إليه الإمام فخر الدين الرازي حيث قال: "إنه -سبحانه- في الجلال والعلو والعظمة بحيث إنه متى قيل: "قيل" لم ينصرف العقل إلا إليه، ولم يتوجه الفكر إلا إلى أن ذلك القائل هو هو، وهذا تنبيه من هذا الوجه، على أنه تقرر في العقول أنه لا حاكم في العالمين، ولا متصرف في العالم العلوي، والعالم السفلي إلا هو"[15]

3- الإبهام؛ ليذهب السامع كل مذهب ويطلب الصواب من مقصد ومطلب، ويُعمل العالِمُ فِكْرَه الصحيح؛ ليظهر له وجه الصواب بالترجيح فيتحقق -القائل- في هذا المقام هو في الحقيقة الملك المقتدر العلَّام

٤- أما "يا": فهي حرف موضوع لنداء البعيد حقيقةً أو حكمًا

علمًا بأن أحرف النداء ثمان: الهمزة، وأي، ويا، وأيا، وهيا، وآ، وأي، ووا، الهمزة وأي لنداء القريب، والأدوات الست الأخرى لنداء البعيد

المنادى ينصب إذا كان مضافًا نحو: يا عبدَ الله، أو شبيها بالمضاف وهو ما عمل فيما بعده نحو: يا حسنًا وجهُه، أو النصب نحو: يا طالعاً جبلًا، أو الجر نحو: يا رفيقاً بالعباد، أو نكرة غير مقصودة نحو قول الواعظ: يا غافلًا والموت يطلبه، وقول الأعمى عندما يعبر الشارع: يا رجلًا خذ بيدي

فإن كان المنادى العلم المفرد: وهو ما كان كلمة واحدة (ليس مضافاً ولا شبيهاً بالمضاف) وإن كان مثنى أو جمعاً، فإنه يُبنى على ما يُرفع به، فيبنى على الضم نحو: يا زيدُ، وعلى الألف نحو: يا زيدان، وعلى الواو نحو: يا زيدون

وإن كان نكرة مقصودة فإنه كذلك يُبنى على ما يرفع به، نحو: يا رجلُ، يا رجلان

المنادي المعرف بـــ"ال"، مثل: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ" أيُّ: منادى مبنى على الضم في محل نصب؛ لأنها تُعامل معاملة النكرة، الهاء: حرف زائد للتنبيه، الناس صفة مرفوعة بالضمة على آخره بعد أيٌّ[16]

٧- وأمّا (الأرض): فهي الجرم المقابل للسماء، وهي بجملتها كريّةٌ على الصواب بالبراهين القطعية

ويطلق مجازًا على أسفل الشيء، كما تُطلق السماء على أعلاه، وهي مؤنثة اسم جنس[17]، وجمعها: أَرَضاتٌ وأرَضون بفتح الراء وربّما سكنت، وأراض وأراضي على غير قياس

٨- وأما "ابلعي": فهو أمر من البَلْع، وهو الزَّرد[18]، والابتلاع: الازدراد[19]، يقال: بَلِعَ اللقمةَ وزرِدها بالكسر في كليهما: يَبْلَعُ ويَزْرَدُ: يريدون بذلك سرعة نزولها في الحُلقُوم، أي من غير توقف لمضغ ولاعلك ولا غيره

٩- وأمّا "الماء": فأصله مَوَهٌ بالتحريك، فقلبت الواو ألفًا لتحريكها وانفتاح ما قبلها، ولذلك جمع على أمواه في جمع القلة[20]، ومياه في جمع الكثرة[21]، كجَمَل وأجمال، وجِمال فالهمزة فيه بدل من الهاء، وتصغيره مُوَيْهٌ

والكاف في "ماءك" ضمير جر متصل، كُسِر؛ لأنه خطاب لمؤنث وهي الأرض، والإضافة للاختصاص؛ لأن المراد من "ماءك" ماء الأرض الذي نبع منها

١٠- وأما "السماء": فهي الجرم الكُرِيُّ المقابل للأرض ذات البروج والنجوم، يجمع على: سماوات وأسمية، وتُطلق مجازاً على السحاب، وعلى المطر، وعلى كلِّ ما علاك فأظلك؛ ولذلك قيل لسقف البيت سماء، ويقال لظهر الفرس أيضًا سماء لعلوّه

وقد اختار بعض المفسرين أن يكون نداء السماء هنا على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وأنَّ المراد: مطر السماء، كقوله -تعالى-: [وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ][22]، أي: أهل القرية

١١- وأمّا "أقلعي": فأمر عن الإقلاع وهو: الإمساك عن الشيء بذهابه والكف عن الشيء بزواله، ومنه: أقلعت عنه الحُمَّى أى كفَّت وأمْسكتْ

١٢- وأما "غيض الماء": فهو مبنى للمفعول من غاضه إذا أنقصه، وهو من الأفعال التي تقع لازمةً ومتعديةً، يقال: غاض الشيء وغاضه غيرُه[23]، وقد جاء في القرآن الكريم، فمن المتعدى الواقع هنا لبنائه للمفعول، ومن اللازم قوله -تعالى- في سورة الرعد: [اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ][24]

١٣- وأمّا "ال": الداخلة على الماء: ويقال لها أداة التعريف وحرف التعريف، فهي نوعان: عهدية وجنسية فالعهدية على ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون مصحوبها معلومًا ذكريًا، كقوله -تعالى-: [كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا* فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ][25]، [مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ][26]، وتُعرف هذه بأن يسُدَّ الضميرُ مسدَّها مع مصحوبها

الثاني: أن يكون مصحوبها معلومًا ذهنيًا، كقوله -تعالى-: [إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحتَ ٱلشَّجَرَةِ][27]، [إِذ هُمَا فِي ٱلغَارِ][28]

الثالث: أن يكون معهوداً حضوريًا ويقع بعد أسماء الإشارة، نحو: جاءني هذا الرجل، وفي النداء، نحو: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ][29]، وإذا الفجائية نحو: خرجتُ فإذا الأسدُ، وفي اسم الزمن الحاضر نحو: [ٱليَومَ أَكمَلتُ لَكُم دِينَكُم][30]

والجنسية أيضًا على ثلاثة أقسام:

الأوّل: لاستغراق الأفراد: وهي التي يخلفها "كل" حقيقة، نحو: [إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ][31]، و[يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا][32]

الثاني: لاستغراق خصائص الأفراد، وهي التي يخلفها "كل" مجازاً، نحو: زيد الرجلُ علمًا، أي الكامل في هذه الصفة، ومنه قوله -تعالى-: [ذَلِكَ الْكِتَابُ][33]

الثالث: تعريف الماهية: وهي التي لا يخلفها كلٌّ لا حقيقة ولا مجازاً، نحو: [وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ][34]

إذا علم ذلك فالألف واللام في "وغيض الماء" على قول صاحب المفتاح للمعهود الذهني[35]، وعلى قول العلامة الزمخشري لاستغراق الأفراد

١٤- الأول أولى لوجوه:

أحدها: أنه أبلغ في القدرة وأجلُّ في العظمة وأعلى في نفوذ الإرادة، حيث حصل بمجرد أمر القادر المقتدر تمييز ماء الأرض من ماء السماء، فبلعت الأرض ماءها الذي نبع منها، وبقي ماء السماء الذي صدر عنها حتى غيض بقدرة الحكيم العلي العظيم

الثاني: أنَّه لو حمل على العموم للزم ذهاب المياه كلها لورود الأمر وصدور الحكم الرّباني

الثالث: أنّه بهذا ينتظم "غيض الماء" في سلك "قيل" و"قُضي"، فلا يكون تابعًا للأمرين، إذ يصير التقدير: [وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ][36]، فبلعت، [وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي][37] عن إرسال الماء فأقلعت، [وَغِيضَ الْمَاءُ][38] الذي نزل من السماء

الرابع: أنَّه لو لم يحصل منهما الامتثال الحقيقي بحسب ما أُمرا به لقيل: "فغيض" بالفاء لمجيئه جواباً

١٥- وأما "قضي": فهو فعل ماض بني للمفعول من القضاء: وهو الفصل والحكم والبتُّ والتمام

١٦- وأمّا "الأمر": فهو واحد الأمور، وهو لفظ عام يشمل الأقوال والأفعال قال -تعالى-: [قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ][39]، [وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ][40]، ويُطلق على الإبداع، قال -تعالى-: [أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ][41]، وذلك يختص بالله -تعالى-، وعليه حُمل [قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي][42]، أي: من إبداعه

والأمر: التقدم بالشيء سواء كان بلفظ افعل أو ليفعل أو بإشارة أو نحو ذلك. ومنه الأمر هنا أي: قُضي الأمرُ الذي تقدَّم به، وأمر من نجاة من نجا وهلاك من هلك، والله أعلم

١٧- والألف واللام فيه إما للعهد الذكري الذي ذكر في هذه القصة وهو قوله -تعالى-: [حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ][43]، أو للعهد الذهني: أي أمر هلاكهم

١٨- وأمّا "استوت": فمعناه استقرت، أي الفُلكُ فعاد ضمير الفاعل إلى ما تقدم في هذه القصة من هذه السورة حيث قال: [وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ* وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ][44]، [حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ][45]، أي: الفلك، [وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ][46] كل ذلك عائد إلى الفلك وهي السفينة، والفلك تُستعمل

في الواحد والجمع، فهو في الواحد كبناء "قُفْلٌ"، وفي الجمع كبناء "حُمر" جمع حمراء، قال -تعالى-: [وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ][47]، و[حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم][48]

١٩- واستوى يُستعمل لمعانٍ تالية:

1- استوى الرجل من اعوجاج، واستوى الشيء: اعتدل، أي توسّطَ بين الحالين في كمٍّ وكيفٍ، قال الله -تعالى-: [فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ] [49]

2- استوى زيد وعمرو: تساويا، قال -تعالى-: [لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ][50]

3- استوى الرجل إذا انتهى شبابُه

4- وإذا عُدّي بـــ"إلى" فمعناه: قَصَد، قال -تعالى-: [ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ][51]

5- وإن عُدّي بـــ"على" فالمعنى استقر معتدلًا كما وقع هنا وكقوله -تعالى-: [لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ][52]

6- وقد تأتي بمعنى استولى

وأما قوله -تعالى-: [الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى][53] فللناس فيه أقوال أسلمها قول أهل السنة وهو: الاستواء على العرش صفة الله -تعالى- بلا كيف، يجب على الإنسان الإيمان به ويَكِلُ العلمَ فيه إلى الله -عزوجلّ-، سأل رجلٌ مالك بن أنس -رحمه الله- عن قوله -تعالى-: [الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى] كيف استوى؟ فأطرق رأسه مليًّا، وعلاه الرحضاء، ثم قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا ضالًا ثم أمر به فأُخْرِجَ"[54]

٢٠- وأمَّا "على": فحرف جرٍّ بمعنى الاستعلاء

٢١- وأمَّا "الجوديُّ": فهو الجبل المعروف المشهور بقرب الـــمَوْصِل، والألف واللام فيه زائدة ليست للتعريف تدخل على الأعلام التي لا تكون أعلاما في الأصل، كالبيت للكعبة، والمدينة لطيبة، والنجم للثريا، والجودي لجبل الجزيرة

والجوديّ: قرئ بتشديد الياء في المشهور، وفي غير المشهور بتخفيفها

قال الجوهري: وهو جائز للتخفيف، ويجوز أن يكون سُمِّي بفعل الأنثى مثل "حُطِّي" ثم أدخل عليه الألف واللام[55]

واستقرت السفينة على الجودي [56] يوم الأضحى من ذي الحجة كما قال قتادة وغيره من أئمة التفسير[57]

٢٢- وأمّا "وقيل بعداً": فتقدم الكلام في قيل، ولكن اختلفوا في القائل، فقيل: هو الله -تعالى-، وهذا ما قاله العلامة السكاكي[58]، وقيل: من كلام نوح -عليه السلام- وأصحابه، ومال إليه الإمام فخر الدين الرازي[59]

والأصح هو الأول؛ لأن الله -تعالى- يقول بُعيد ذلك في قصة هود: [أَلَا بُعدا لِّعَاد قَومِ هُود][60] وفي قصة ثمود: [أَلَا بُعدا لِّثَمُودَ][61]، وفي قصة شعيب: [أَلَا بُعدا لِّمَدَينَ][62]

والقائل في ذلك كله هو: الله -تعالى-، والقرآن يفسِّر بعضُه بعضًا فيجري القول على نَسَقٍ واحدٍ، واللهُ أعلم

واختلفوا أيضًا في معنى "بُعدا"، هل هو الإبعاد بالطَّرد ونحوه أو هو الإهلاك؟ فالذي يظهر من أقوال أكثر سلف المفسِّرين: أنه الطرد من "بَعُد" بالضم إذا تباعد فهو بعيدٌ يبعُدُ، كذلك بَعُد الذي هو ضد القرب قال ابن عباس-رضي الله عنه-: بُعدًا من رحمة الله[63]

وقال آخرون: هو الهلاك ونحوه، ومن بَعِدَ بالكسر "يبعَدُ" بالفتح "بَعَدًا" بفتح الباء والعين، و"بُعد" بالضم والإسكان أيضًا[64]

الجوهريُّ جعل "البُعد" بالضم هو ضد القرب، وجعل "البَعْد" فالفتح هو الهَلاك[65]

والصواب ثبوت الضم في الهلاك أيضًا، وبه ورد القرآن الكريم، قال -تعالى-: [أَلَا بُعدا لِّمَدَينَ كَمَا بَعِدَت ثَمُودُ][66]، ويجوز أن يُراد المعنيان، ويكون من التورية والإيهام كما سيأتي بيانه، والله -تعالى- أعلم

٢٣- وأمّا "اللام": فهي حرف جرٍّ بمعنى الاختصاص، مثل: [وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ][67]، علمًا بأن أصل لام الجر الفتح، ولكنها كُسرت مع الظاهر مناسبة لعملها، ويدل على ذلك فتحها مع الإضمار، والإضمار يرد الشيء إلى أصله

٢٤- وأما "القوم": في الأصل مصدر قام، فوصف به، ثم غلب على الرجال دون النساء ولذلك قابلهنَّ به، قال -تعالى-: [يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ][68]

قال الجوهري: القوم اسم جمع بمعنى الرجال دون النساء ولا واحد له من لفظه بل من معناه وهو: رجل، وربما دخل فيه النساء على طريق التَبَع؛ لأن قوم كل نبي رجال ونساء[69]

٢٥- وأما "الظالمين": فهو جمع ظالم، من الظلم الذي هو: وضع الشيء في غير موضعه، وأصله الجور ومجاوزة الحدِّ[70]

وحيث أطلق في القرآن الكريم فالمراد به الكفر لقوله –تعالى–: [أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ][71]

وقد يُراد به ظُلم الناس، كقوله –تعالى–: [فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ][72]، [إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ][73]

وقد يُراد به ظُلم النفس، كقوله –تعالى–: [قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي][74]، و[فَمِنهُم ظَالِم لِّنَفسِهِ][75] وقد يُراد به ذلك كله كما في هذه الآية الكريمة فإن قوم نوح –عليه السلام– كفروا بالله، وأشركوا به، وظلموا نوحاً بتكذيبهم إيَّاه، وافترائهم عليه، وظلموا أنفسهم بكفرهم وعنادهم وتكذيبهم

الأساليب البلاغية في الآية الكريمة:

1- ما فائدة واو العطف هنا في قوله "وقيل"؟ وهلا أتى بغير واو؟ كما جاء في الآية بعيد هذه الآية الكريمة ألا وهي: [قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ][76]

الجواب: عُطفت هذه الآية الكريمة على الآية السابقة؛ لأن بينهما التوسط بين الكمالين: وهو أن يكون بين الجملتين اتفاق في الخبرية أو الإنشائية، وتكون بينهما مناسبة، والمانع عن العطف[77] لايوجد، وكل واحد من هذه الشروط الثلاث موجود بين هذه الآية والآية السابقة، فعطفت عليها

بخلاف قوله: [قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ][78] فإنه وقع جواباً لتعوُّذ نوح –عليه السلام– بربه أن يسأله ما ليس له به علم، فبين [قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ][79] والآية التي قبلها وهي: [قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ][80] شبه كمال الاتصال: هو أن تكون الجملة الثانية جواباً عن السؤال الذي أثارته الجملة الأولى، وهو هنا: ماذا كان رد الله –تعالى– على نوح –عليه السلام– عندما تعوذ به أن يسأله ما ليس له به علم؟

كما وقع [قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ][81] جواباً لقوله –تعالى–:[وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ][82]

هذه الآية أثارت السؤال، وهو: ماذا كان رد الله –تعالى– على نوح –عليه السلام– عندما قال: إن ابني من أهلي؟

2- جاء التعبير القرآني بالنداء "يا أرض ابلعي"، و لم يأت بـــ"وقيل للأرض" كذا "وللسماء" كذا؛ للتنبيه على أن القدرة العظيمة صالحة أن تصيِّر هذه الأجرام الجسيمة إلى حال من يعقل، وتوصل مثل هذه الجمادات الكثيفة إلى رتبة من يعقل، وإلا فخطاب من لا يعقل مهمل، والإقبال عليه بالأمر أمر معضل

3- تقدم ذكر الأرض في هذه الآية الكريمة حيث تصور نهاية الطوفان، على حين تقدمت السماء في تصوير الله بداية هذا الطوفان [فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ](83)

لما كانت السماء هي الأصل في نزول الماء، والمصدر المعتاد لإمداد الأرض وأهلها بما يستقوت أو إنزاله سيولًا تدمر من يشاء من خلقه كما تصوره الآية الكريمة [فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ](84) وجب بمقتضى البلاغة أن تقدم السماء، وكما كانت بداية الطوفان دليلًا على عظمة القدرة الإلهية في تحويل الأرض إلى محيط متلاطم الأمواج في أقل من طرفه عين، أظهر الله نفس القدرة في إخفاء هذا الطوفان بمثل ما ظهر به، ولكي تظهر استجابة الأرض والسماء في تنفيذ أمر الله، توجه النداء من الله للأرض أولًا أن تبتلع ماءها، و لم يصدر إليها الأمر بالكف عن تفجير الماء؛ لأن الكف وحده يعني بقاء ما عليها من الماء، وذلك لا يحقق الغرض من إزالة كل أثر للطوفان على وجه الأرض، ثم جاء بعد ذلك نداء السماء وأمرها بالكف عن إرسال مائها، حتى لا تعوض السماء ماء تبتلعه الأرض، ومن المعلوم المشاهد في حياة الناس أن المدن التي تعرض لنزول الأمطار، ويكون لديها منافذ صناعية لابتلاع الماء لا تتوقف فيها الحياة، مهما كانت الأمطار غزيرة، بخلاف غيرها مما ليست لديها هذه المنافذ، فإن قليلًا من الأمطار يعوق الحياة فيها، ومن ثمَّ كان تقديم السماء في بدء الطوفان هو الأهم، ولو عكس الترتيب وأمرت السماء أولا بالإقلاع لظل خطر التدمير قائمًا، وخاصةً بعد أن وصل الماء إلى المستوى الذي احتفت معه الجبال، وهذا يفسر سر اختيار "ابلعي" في أمر الأرض و"أقلعي" في أمر السماء، وهو وحده كاف في الإبانة عن الفرق بين أثر الندائين

4- جاء التعبير القرآني بلفظ "ابلعي" دون "اشربي"، و"تشرّبي"، و"نَشِّفي"، و"غوِّري"، و"أذهبي" مما هو مثله أو بمعناه، فمن وجهين: معنوي ولفظي:

فالمعنوي: أنه لا يقوم لفظ من هذه الألفاظ ونحوها في معناه الذي وضع له، وهو: ازدراد اللقمة ونحوها في الحلقوم ونحوه دفعة واحدة من غير توقف لمضغ ولا نحوه، كما تقدّم

ولـــمّا أمر الله –تعالى– بتفجير الأرض عيونًا نبع الماء من تلك العيون، فلمَّا انتهى أمر الطوفان، أمر الله –تعالى– الأرض أن تبتلع ماءها، يعني الذي خرج من كلِّ عين فرجع الماء غائراً في تلك العيون تبتلعه الأرض بأسرع وقتٍ لأمر الله –تعالى– وإذنه

واللفظي: حسن الجناس الناقص(85) بين "ابلعي" و"أقلعي"

5- أضيف الماء إلى الأرض، فجاء التعبير بـــ"ماءك"، و لم يأتِ بـــ"الماء" كما جاء "وغيض الماء"؛ لأنه لما كان ماء الطوفان ماءين: ما نبع من الأرض، وما نزل من السماء، أمر الأرض ببلع الماء الذي نبع

منها إعلاماً بعظم قدرة قدير قادر على كلِّ شيء، قدير على تمييز كل من الماءين بعد اختلاطهما فسبحانه ما أعظم شأنه!

ولو جاء التعبير بـــ"الماء" لم يكن فيه دلالة على هذه القدرة العظيمة

6- جاء التعبير بـــ"أقلعي"، و لم يأتِ بـــ"أمسكي" ونحوه؛ لأن الإقلاع هو الإمساك عن الشيء بحيث يذهب وينقطع أصلًا، بخلاف "الإمساك" الذي هو التوقف به

وقد ورد عن ابن عباس –رضي الله عنهما–: "لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم"(86)، وأيضا بينها وبين "ابلعي" جناس ناقص من ألوان علم البديع

7- لم يُصدر الأمر للماء مع صدوره للأرض والسماء؛ لأنه لو صدر أمره –تعالى– للماء لم يبق في الدنيا ماء، ولو ذهب ماء الدنيا لخرب العالم

والمقصود: ذهاب ماء الطوفان فأمر –سبحانه وتعالى– الأرض بابتلاع الماء الذي خرج منها للطوفان، وبقي الماء الذي نزل من السماء فغاض، وعادت الحال إلى ما كان عليه قبل الطوفان

8- عُطفت جملة "وغيض الماء" على ما قبلها بالواو دون الفاء مع كونها أظهر في هذا الموضع؛ لفائدة جليلة وهي: أنه لو عطفت بالفاء هذه الآية على الآية السابقة لم يكن فيه دليل على امتثال الأمر من كل من الأرض والسماء، والعطف بالواو دليل على أنهما امتثلا أمر الله –تعالى–، وكان التقدير: فبلعت الأرض ماءها، وأقلعت السماء عن المطر وغيض، فهذا من أحسن الإيجاز وأبلغه، وهو من إيجاز الحذف

9- جاء التعبير بـــ"غِيض" و لم يأتِ بـــ"غاض" المبني للفاعل؛ لوجهين: لفظي ومعنوي:

فاللفظي: مناسبة الفعل قبله وزناً ولفظاً؛ ليجريا على نَسَق واحد

والمعنوي: لنكتة لطيفة، وهي الإعلام بأن الماء مسخَّر بأمر الله –تعالى–، وتحت طاعته كسائر المخلوقات ليس لواحد منها تصريف بنفسه في الحقيقة

فبني للمفعول؛ ليعلم أن له من يغيضه، وهو الله –سبحانه وتعالى– فلو بُني للفاعل لم يكن ذلك منه حقيقة، ولا تصريحًا بل بالإيماء والتأويل، والتصريح بالحقيقة أولى سيّما في هذا المقام

10- اختير "غيض" على ما هو بمعناه مثل "نقص"؛ لموازنته "قيل"، ولمثل ذلك تأثير في الفصاحة، فلأنه أخف لفظا وأسهل حروفا، والغين وإن كانت من حروف الاستعلاء، فإنها حرف رخو ضعف بالكسر، والياء بسكونها في غاية الخفة، والضاد مع أنها من حروف الإطباق والاستعلاء فإنها رخوة فليس فيها الشدة والقلقلة التي في القاف، ومع كون "نقص" أثقل من "غيض" اجتمع فيه توالي الحركات التي صيرها إلى

فعل الذي جوزت العرب تسكين عينه فهو أثقل الحركات والحروف، والحس يدرك خفة "غيض" بالنسبة إلى "نقص" مع أن الغيض للماء ونحوه مما يسيل ويجري أكثر استعمالا عند العرب مما لايجري

11- جاء التعبير بـــ"الماء" مفرداً و لم يرد جمعًا؛ لأنه لو جاء التعبير "وغيضت المياه" لتناول جميع المياه على وجه الأرض، وليس الأمر كذلك، بل إنما غاض "ماء السماء" على ما قرَّرنا

12- جاء التعبير بـــ"قضي" المبنى للمفعول، و لم يأتِ بـــ"انقصي الأمر" أو "قضى الله الأمر" أو نحو ذلك، للاختصار، وللموازنة مع الأفعال التي وردت قبله وهي: "قيل" و"غيض"

وللعلامة السكاكي مسلك آخر في مجيء هذه الأفعال مبنية للمفعول، وهو سلوك سبيل الكناية: "إن تلك الأمور العظام لا تتأتى إلا من ذي قدرة لا يُكتنه، قهار لا يغالب، فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره، جلت عظمته قائل: يا أرض ويا سماء" [87]، فعنده هذه الأفعال كناية عن عظمة الله –سبحانه وتعالى–

13- جاء التعبير بـــ"الأمر" محلى بالألف واللام دون أن يأتي "أمر قوم نوح" أو "أمرهم" تجنباً من التطويل الذي لا يليق بالمقام، ولو جاء التعبير بـــ"أمرهم" لم يفِ بالمقصود، فجاء التعبير بلفظ المعرف بالأداة الدالة على العهد الذكري الذي ذكر في هذه القصة وهو قوله –تعالى–: [حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ][88]

14- جاء التعبير بـــ"استوت" دون ما في معناها، وهو "استقرت" أو "رست" المخصوص بالسفن مع كونه أخصر، فنقول: أما عدوله عن "استقرت" فلوجهين:

أحدهما: الاختصار، فإن "استوت" خمسة أحرف، و"استقرت" سبعة

والثاني: إن "استقرت" تدل على الاستقرار، و"استوت" تدل على ذلك وزيادة، فإنه يدل على الاستقرار والسلامة والاعتدال، قال الله –تعالى–: [وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ][89]، [لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ][90]، [فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ] [91]

أتى بـــ"استوى" الدالة على أن السفينة استقرت بالسلامة على جبل الجودي فلم يصبها ما يصيب السفن المشحونة إذا استقرت على الأرض سيّما حجارة الجبل، فكان هذا من آيات الله وجملة المعجزات الجارية على يديه –عليه السلام–، وهذه نكتة في غاية اللطف والحسن، والله أعلم

وأما عدوله عن "رست" مع الاختصار، وأنها مخصوصة بالسفن في لسان العرب، لايقولون: إذا وقفت السفن غير ذلك؛ لأنه لو جاء التعبير بـــ"رست" لم يكن موافقاً للمعنى المراد بالاستواء؛ لأن الاستواء يكون على الجبل، والرّسْو على الماء يقال: رست السفينة إذا وقفت على المراسي –المراسي مفردها: مِرساة

وهي الحديدة الثقيلة تُلقى في الماء فتُثبِّتُ السفينة في مكانها-، كما في قول أهل التفسير "تشامخت الجبال يومئذٍ وتطاولت من الغرق وتواضع هو لله فلم يغرق واستوت عليه سفينة نوح شهراً"[92]

15- لم يصرح بفاعل "استوت"؛ لأنه لو صُرِّح بذلك لكان تطويلًا بلا فائدة، فإن الضمائر التي تقدَّمت عائدة عليها جملة بعد جملة "، فقال -تعالى-: [وَاصْنَعِ الْفُلْكَ][93]، و[فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا][94]، أي في الفلك، وقال: [وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ][95]، وهي تجري حتى قال: "واستوت" أي هي يعني الفلك، والمقام مقام اختصار كما رأيت

16- لم يأتِ التعبير بـــ"جبل الجودي"؛ لأن الجودي علم لهذا الجبل المعروف، والألف واللام فيها ليست للتعريف، بل زائدة تقع في العلم لغلبتها على من هي له كالبيت للكعبة، والمدينة لطيبة، والنجم للثريا، والجودي لجبل الجزيرة

فلو قيل على جبل الجودي لكان من إضافة الشيء إلى نفسه وهو تطويل بلا فائدة، والمقام كما تعرف مقام اختصار وإيجاز، فعلم أنه جبل من حيث العلمية، ولذلك يقول -تعالى-: [وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ][96]، يعني بذلك جبل الطور المعروف، وهو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى -عليه السلام-، و لم يقل في شيء من ذلك جبل الطور إيجازاً واختصاراً للعلم به

١٧- لماذا استوت السفينة على الجودي دون غيره؟

الجواب: استوت السفينة على الجودي؛ لأنه ورد في التفسير، وصحَّ عن الإمام الكبير التابعي الجليل الحجة في علم التفسير صاحب عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- ترجمان القرآن أنه قال: تشامخت الجبال وتطاولت يوم الطوفان من الغرق وتواضع جبل الجودي لله -تعالى- فلم يغرق، فاستوت عليه السفينة[97]، ولله -تعالى- في مخلوقاته أسرار لا يعلمها إلا هو "ومن تواضع لله رفعه الله"[98]، وقيل: كان الجودي جبلًا منخفضًا فكان استواء السفينة عليه دليلًا على انقطاع مادة الماء، والله أعلم

١٨- في قوله "بُعدًا" نكتة عدل بها أن يقول "طردًا" أو "هلاكًا" أو "سُحقًا"؛ للتورية التامة أو الإيهام -فالتورية التامة[99]: أن يكون للكلمة معنيان، فتستخدم في كليهما أي يُقصد منها كلا المعنيان في وقت واحد

وأما الإيهام[100]: أن تكون الكلمة ذات معنيين؛ قريب وبعيد، فالمتكلم يستخدمها في المعنى البعيد والمخاطب يفهم منها المعنى القريب- إذ يصح في "بُعداً" كلٌّ من المعنيين، الذي هو الطرد ضد القرب، والذي هو الهَلاك

قال الجوهري كما تقدم: كلمة "البعد" عند ما تكون بضم الباء فتكون بمعنى ضد القرب، وعندما تكون بفتح الباء فتكون بمعنى الهلاك، والصواب بثبوت الضم في الهلاك أيضًا [أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ](101)

ويشهد للأول قوله –تعالى–: [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ](102)

ويشهد للثاني قوله –تعالى–: [أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ](103)

والدليل على جواز إرادة المعنيين وكونه من التورية التامة: أنه لم يرد "بُعدا" بالفتح، فإنه لو أراد الهلاك فقط لكان بالفتح

وكذا يصح في هذه الآية أيضًا على مقتضى قول العلامة الزمخشري، ومن قال بقوله: إن المراد بالبُعد الهلاك(104)، فيكون من الإيهام، على هذا، ويكون من التورية التامة على ما تقدم، وقد يصح في هذه الآية إيهام آخر على قول من جعل "ويا سماء" على حذف مضاف أي: "يا مطر السماء" يحتمل المعنيين، ويكون البعيد منهما مراداً، والله أعلم

١٩– جاء التعبير بـــ"بُعداً للقوم الظالمين" و لم يأت بـــ"بُعدًا للظالمين" مع أنه أخصر، والمقام مقام إيجاز؛ للإيضاح، ورفع اللّبس، والإعلام بأنهم قوم نوح الذي أرسل إليهم فكفروا به، فإنه لما تقدم في أول القصة وبعده: [وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِه...](105)، [فَقَالَ الْمَلَأُ الذين كفروا مِنْ قَوْمِه...](106)، [قَالَ يَاقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ...](107)، [وَ يَاقَوْمِ لَآ أَسْـــــأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا...](108)، [وَ يَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللّه...](109)، [وَ أُوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّه لَنْ يُؤْمِنَ...](110)، [وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّنْ قَوْمِهِ سَخِرُوْا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوْا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُوْنَ](111) كُرِّر ذكر القوم في سبعة مواضع، ناسب أن يختم القصة عند ذكر ما آل إليه أمرهم بقوله: "بُعداً للقوم الظالمين" أي قوم نوح المقدَّم ذكرهم، فأتى بالألف واللام التي هي للعهد الذكرى كما تقدم، فكان ذلك كقوله –تعالى– في آخر قصة عاد الآتية بعد هذه القصة: [أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ](112)

ولو لم يقل "للقوم" لحصل في الكلام لَبْس؛ فللإيضاح –وهو أن يذكر المتكلم كلاماً في ظاهره لبس ثم يوضّحه في بقية كلامه بحيث يزيل اللبس– ليبين أن القوم الذين سبق ذكرهم في الآية المتقدمة حيث قال: [وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِه سَخِرُوا مِنْهُ](113) هم الذين وصفهم بالبعد؛ لِيُعلم أن كلمة "القوم" ليست فضلة، وأنه يحصل بسقوطها لُبسٌ في الكلام

٢٠- جاء التعبير بـــ"للقوم الظالمين" و لم يأت بـــ"الناس" ونحوه مما يقوم مقامه؛ لحكمة ظريفة وفائدة شريفة ينبغي التنبيه عليها، والإصغاء إليها، وهي: أن القوم حيث ورد الإخبار عنهم مطلقًا كان المراد بهم المخالفين لنبيِّهم الخارجين عن طاعته والجهلة الطغام (أراذل الناس)، من قوله: قام فلان على فلان أي خالفه وخرج عليه، ومنه المقاومة في المصارعة وغيرها، وتقاوموا في الحرب: أي: قام بعضهم على بعض، قال -تعالى-: [كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ][114]، وقال -تعالى-: [كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ][115]، وقال -تعالى-: [فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ][116]،وقال -تعالى-: [وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ][117] ومعلوم أن كلَّ قومهم لم يكذبوهم

وذلك بخلاف الناس فإنه حيث أطلق يراد به الفضلاء الأكياس دون من يتناوله اللفظ تجوزاً نظراً إلى معنى الإنسانية، ولهذا يقال: فلان ليس فيه إنسانية، قال -تعالى-: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ] [118]، أي: كما فعل من فيه معنى الإنسانية. وقال -تعالى-: [أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ][119]، أي من وجد فيه معنى الإنسانية، أي إنسان كان

وانظر إلى مخاطبة الأنبياء قومهم بلفظ يا قوم، والله -تعالى- يخاطب أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، ويأمره أن يخاطبهم عند الإطلاق بـــ"يَا أَيُّهَا النَّاس"، "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ"، فتعين حينئذ أن يذكر هنا القوم دون الناس وغيره مما لا يقوم مقامه، وهذا من ألطف ما أتيه العالم فهما في كلام الله -تعالى-

٢١- جاء التعبير بـــ"الظالمين" و لم يأت بـــ"الكافرين"؛ ليطابق مع ما تقدَّم من قول الله -تعالى- في هذه القصة من هذه السورة وهو: [وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ][120]

وقال صاحب المفتاح: "ختم الكلام بالتعريض -تنبيهًا لسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل ظلمًا لأنفسهم لا غير- ختم إظهار لمكان السخط، ولجهة استحقاقهم إيَّاه، وأنّ قيامة الطوفان، وتلك الصورة الهائلة ما كانت إلا لظلمهم" [121]

ولا يخفى ما فيه، إذ لقائل أن يقول: بل ما كانت إلا لكفرهم وفسقهم بمقتضى الآيات الأخرى، والكلام في نكتة ذكر الظالمين هنا دون غيرها؛ إذ يصح مجيء كلٌّ هاهنا فلابدَّ من مخصِّص

٢٢- جاء التعبير بـــ"يا أرضُ" بالضم دون "يا أرضِ" بالكسر على الإضافة، فإن ذلك يقتضي تشريف الأرض وتكريمها بإضافتها إلى نفسه المقدَّسة، فترك ذلك إيراداً للتهاون الذي من أجله اختار لفظ "يا" على أخواتها

٢٣- ذكر مفعول "ابلعي"؛ لئلا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال، والتلال، والبحار، وساكنات الماء بأسرهنَّ، نظرًا إلى مقام ورود الأمر الذي هو مقام عظمة وكبرياء

٢٤- ولم يذكر مفعول "أقلعي"؛ لأنه بيِّن المراد في مفعول "ابلعي"، من أنه بلع الماء وحده، عُلم أن المقصود بالإقلاع إمساك السماء عن إرسال الماء فلم يذكر متعلق "أقلعي" اختصاراً واحترازاً عن الحشو المستغنى عنه

٢٤- فائدة ختم القصة بما ختمت به، وهو الدعاء عليهم إشعاراً وإيذاناً بتمام المراد من الإخبار عن ملخص شأن هذه القصة، وأنهم أخذوا جزاءهم، وفعل بهم ما يتستحقونه: [وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدا][122]

٢٥- علماً بأن في هذه الآية الكريمة إيجاز قصر: وهو تقليل اللفظ وتكثير المعنى كقوله -تعالى-: [وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ][123]، وإيجاز حذف: وهو الاستغناء بالمذكور عمَّا لم يذكر، سواء كان حرفًا أو كلمة أو جملة أو أكثر، كقوله -تعالى-: [وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ][124]

أما الضرب الأول فظاهر من فحاويها حتى كأن ألفاظها قوالب معانيها، وقد تقدمت الإشارة إليه في تفسيرها، وبسطت العبارة في تقريرها

وأما الضرب الثاني: فمن الحرفي ورود "غيض" مخففا، كما ذكره العلامة السكاكي، ومن الكلمي "يا سماء أقلعي"، حيث لم يذكر المفعول، كذا في قوله: "يا سماء" على حذف المضاف، قالوا: وقد جمعت هذه الآية ما لا يجمعه غيرها، وقد ذكر القصة باللفظ القصير

٢٦- والإرداف[125]: وهو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له، ولا بلفظ الإشارة الدال على المعاني الكثيرة، بل بلفظ هو رَدْفُ المعنى الخاص وتابعه يقرّر ذلك المعنى به، مثل قول الله -تعالى-: [وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ][126]، فإنه عبر عن استقرار السفينة بهذا المكان استقراراً متمكنًا بلفظ قريب بلفظ المعنى المقصود

وقال أبو حيان "الإرداف في قوله: "واستوت على الجودي" فقوله: "استوت" كلام تام، و"على الجودي" مردف قصداً للمبالغة في التمكن بهذا الإمكان"[127]

٢٧- والإشارة: وقد يقال لها الإيماء وهو: أن يشتمل اللفظ القليل على معان كثيرة بإيماء إليها وذكر لمحة تدل عليها، كقوله -تعالى-: [فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ][128]

ومّما عدّوه من الإشارة في الآية قوله -تعالى-: "وغيض الماء" فإنه عبَّر بهذين اللفظين عن معانٍ كثيرة، وعدَّ بعضُهم من الإشارة قول امرئ القيس: قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ، فإنه في هذه الكلمات البسيطة وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمنزل

والتورية التامة والإيهام كما تقدم

٢٨- وحسن التعليل: وهو أن يدعى المتكلم علة للشيء غير علته الحقيقية كما في قول الشاعر:

عداتي لهم فـضـــــــــــلٌ عـلـيَّ فلا أذهبَ الرحمنُ عني الأعاديا

هُمُ فحصوا عن زلَّتي فاجتنبتُها وهم نافَسُوْني فاكتسبتُ المعاليا

ومنه في الآية الكريمة "وغيض الماء" فإن غيض الماء علة استواء السفينة على الجودي

٢٩- والتسهيم: هو أن يتقدم في الكلام ما يدل على ما يتأخر بالمعنى أو باللفظ[129]، فتارة يدل على عجز البيت والفقرة، وتارة يدل على ما قبل ذلك، فأول الآية إلى قوله "أقلعي" يقتضى آخرها

٣٠- وإيراد المثل: وهو أن يورد المتكلم مَثَلًا في كلامه، كقوله -صلى الله عليه وسلم-: "لا يُلدغُ المؤمن من جُحر مرتين" [130]، ومنه في الآية الكريمة قوله -تعالى-: "وقضي الأمر" وهو مثل مشهور لكل شيء تمَّ و فات تداركه

والجناس: الذي تقدم ذكره

٣١- والطباق: وهو الجمع بين الشيء وضده، كاليل والنهار، والسواد والبياض، ومنه في الآية الكريمة "يا أرضُ ابلعي" و"يا سماءُ..."، حيث طابق بذكر الأرض والسماء

٣٢- والمقابلة: وهي أن يُؤتى بمعنيين متوافقين أو بمعان متوافقة ثم بما يقابلها على الترتيب، كما في قوله -تعالى-: [فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ][131]، ومنها في الآية الكريمة "يا أرض ابلعي" و "يا سماءُ أقلعي"

٣٣- والاحتراس: وهو أن يأتي المتكلم بمعنى يُتوجه عليه دخلٌ فيفطِن له، فيأتي بما يخلصه من ذلك، ومنه في الآية الكريمة "وقيل بُعدًا للقوم الظالمين" إذ الدعاء عليهم مشعر بأنهم مستحقوا الهلاك احتراسًا من ضعيف العقل يتوهَّم أن العذاب شمل من يستحق ومن لا يستحق، فتأكد بالدعاء كونهم مستحقين

٣٤- والتهذيب؛ لأن مفردات الآية الكريمة موصوفة بصفات الحسن، عليها رونق الفصاحة، سليمة من التعقيد، والتقديم والتأخير

٣٥- والتمكين؛ لأن الفاصلة مستقرة في قرارها، مطمئنة في مكانها

٣٦- وحسن النسق؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- عطف القضايا بعضها على بعض بحسن ترتيب

٣٧- والائتلاف[132]: أي ائتلاف اللفظ مع المعنى؛ لأن كل لفظة منها لا يصلح موضعها غيرها

٣٨- والانسجام: وهو تحدُّرُ الكلام بسهولة كما ينسجم الماء، أي: ينصبُّ

٣٩- وحسن البيان؛ لأن السامع لا يتوقف في فهم الكلام ولا يشكل عليه شيء

٤٠- والتعريض: فإنه -تعالى- عرَّض بسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل ظلمًا، وأن الطوفان وتلك الصور الهائلة ما كانت إلا لظلمهم[133]

٤١- والوصف: وهو قصُّ القصَّة ووصفها بأحسن وصف بحيث استعمل نعوت ألفاظها وصفات معانيها فما أعظم إعجازها! آية عدد ألفاظها تسع عشرة كلمة، جمعت هذه الأنواع وحوت علومًا لم تقرع الأسماع، واشتملت على فنون العلوم، ولعلَّ ما غاب عنا فيها من المنطوق والمفهوم أضعاف ما ذكرنا، وأمثال أمثال ما بيَّنا

قال العلامة الزمخشري بعد تحليل هذه الآية الكريمة: "ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية، ورقصوا لها رؤوسهم، لا لتجانس الكلمتين، وهما قوله: "ابلعي" و "أقلعي" وذلك وإن كان لا يخلي الكلام من حسن فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب، وما عداها قشور"(134)

وروي أن أعرابيا سمع هذه الآية فقال: هذا كلام القادرين، وعارض ابن المقفع القرآن الكريم فلما وصل إلى هذه الآية الكريمة أمسك عن المعارضة، وقال: هذا كلام لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بمثله(135)

وفي العجائب للكرماني: "أجمع المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية بعد أن فتشوا جميع كلام العرب والعجم، فلم يجدوا مثلها في فخامة ألفاظها، وحسن نظمها، وجودة معانيها في تصوير الحال، مع الإيجاز من غير إخلال"(136)

نتائج البحث:

توصل البحث إلى جملة من النتائج، من أهمها:

1. كشفت الدراسة أن البناء المعجمي في الآية قائم على دقة بالغة في اختيار الألفاظ، بحيث يؤدي كل لفظ معنى خاصًا لا تؤديه الألفاظ القريبة منه بالدرجة نفسها، وهو ما يظهر بوضوح في اختيار "ابلعي"و"أقلعي" و"استوت" وغيرها

2. تبين أن التعبير بـــ"ابلعي"دون "اشربي" أو غيرها من الألفاظ لم يكن لمجرد التنويع اللفظي، بل لأن "الابتلاع" أدل على سرعة دخول الماء وانقطاعه، وهو أنسب للمقام الذي يصور زوال الطوفان بأمر الله تعالى

3. أظهر البحث دقة التعبير في "ماءك" بإضافة الماء إلى الأرض؛ إذ أفادت الإضافة اختصاص الأرض بالماء الذي نبع منها، مع تمييزه عن الماء النازل من السماء، وفي ذلك إشارة إلى عظيم قدرة الله تعالى على التمييز بين الماءين بعد اختلاطهما

4. ثبت أن اختيار "أقلعي" بدل "أمسكي" ونحوها أبلغ في تصوير انتهاء الطوفان؛ لأن الإقلاع يدل على الإمساك والانقطاع، وليس مجرد التوقف، فجاء اللفظ مناسبًا تمام المناسبة للمقام

5. ظهر أن عدم توجيه الأمر إلى الماء نفسه من دقائق التعبير القرآني؛ لأن المقصود هو إزالة ماء الطوفان، لا إزالة الماء كله، ولذلك وُجّه الأمر إلى الأرض لتبتلع ماءها وإلى السماء لتقلع عن إنزال الماء

6. تبين أن البناء للمفعول في "غيض الماء" و"قضي الأمر" لم يكن مجرد اختصار لفظي، بل جمع بين الإيجاز والموازنة اللفظية، وأفاد الإيحاء بأن هذه الأحداث العظيمة جرت بأمر الله تعالى وقدرته، دون حاجة إلى التصريح بالفاعل

7. كشفت الدراسة عن بلاغة العطف بالواو في "وقيل" و"وغيض"؛ إذ أسهمت الواو في ربط الجمل بعضها ببعض وإبراز تتابع الأحداث، كما أفاد العطف بالواو في الموضع الثاني معنى امتثال الأرض والسماء لأمر الله تعالى، مع ما في ذلك من إيجاز بالحذف

8. أظهر ترتيب "الأرض" قبل "السماء" مناسبة دقيقة بين اللفظ وتصوير الحدث؛ فقد كان المقام مقام إنهاء الطوفان، فناسب أن يبدأ الأمر بابتلاع الأرض للماء ثم يأتي الأمر إلى السماء بالإقلاع عن إنزاله، ليكتمل بذلك زوال أثر الطوفان

9. برز في الجمع بين "ابلعي" و"أقلعي" جمال صوتي وبلاغي واضح، إذ نشأ بين اللفظين جناس ناقص زاد العبارة حسنًا، مع قيام التناسب بين الفعلين في المعنى والسياق

10. تبين أن اختيار "استوت" دون "استقرت" أو "رست" أبلغ في وصف حال السفينة؛ لأن "استوت" لا تدل على مجرد الاستقرار فحسب، بل تجمع معه معنى الاعتدال والتمكن والسلامة، وهو أنسب لما وقع للسفينة من استقرار آمن على الجودي

11. أظهرت الدراسة أن حذف الفاعل في "استوت" من مقتضيات الإيجاز، لأن السياق والضمائر السابقة كفيلان بتعيين الفاعل، فكان التصريح به تطويلًا لا حاجة إليه في مقام اختير فيه الإيجاز

12. كشفت لفظة "بعدًا" عن ثراء دلالي وبلاغي خاص؛ إذ تحتمل معنى البعد والطرد، كما تحتمل معنى الهلاك، مما جعلها صالحة للتورية أو الإيهام بحسب توجيه المعنى، فجمعت في لفظ واحد بين أكثر من دلالة مناسبة لمآل القوم

13. ظهر أن التعبير بـــ"للقوم الظالمين" دون "للكافرين" أو "للناس" جاء لحِكَم دلالية وبلاغية؛ فلفظ "القوم" يربط خاتمة القصة بمن سبق ذكرهم فيها، ولفظ "الظالمين" يصفهم بوصف جامع لما صدر منهم من كفر وشرك وتكذيب وظلم للنبي عليه السلام ولأنفسهم

14. اشتملت الآية على مقابلة بديعة بين "يأرض ابلعي" و"ياسماء أقلعي"، وعلى طباق بين الأرض والسماء، مما أسهم في إبراز شمول القدرة الإلهية للعلوي والسفلي، وإحكام الصورة التي رسمتها الآية لنهاية الطوفان

15. ظهر في الآية نوع من الإيجاز البليغ بنوعيه: إيجاز القصر وإيجاز الحذف؛ فقد حملت الألفاظ القليلة معاني كثيرة، وحُذفت بعض المتعلقات اعتمادًا على دلالة السياق، كما في "أقلعي" وغيرها، فاجتمع اختصار اللفظ مع وفرة المعنى

16. أكد البحث أن حسن النسق والائتلاف والانسجام من أبرز خصائص نظم الآية؛ فقد جاءت القضايا المتعاقبة مرتبة ترتيبًا محكمًا، وتآلفت الألفاظ مع المعاني، وانساب الكلام بسهولة ووضوح دون تعقيد أو اضطراب

17. خلصت الدراسة إلى أن البلاغة في هذه الآية لا تقوم على فن بلاغي منفرد، وإنما تتضافر فيها مجموعة من الأساليب والفنون، كالجناس والطباق والمقابلة والتورية والإيهام والإيجاز والإرداف والإشارة وحسن التعليل والتسهيم والاحتراس، بما يحقق وحدة فنية متكاملة

18. أكدت الدراسة أن البناء المعجمي والبناء البلاغي في الآية متلازمان؛ فاختيار المفردة القرآنية يؤدي وظيفته الدلالية والبلاغية في الوقت نفسه، ولا يمكن استبدالها بلفظ آخر دون أن يفقد النظم شيئًا من دقته وجماله، وهو ما يظهر في وصف المقال للآية بأن ألفاظها متآلفة مع معانيها، وكل لفظة منها موضوعة في موضعها

19. انتهى البحث إلى أن قِصَر الآية لا يعني قلة معانيها، بل على العكس، فقد اجتمع فيها كثرة المعاني مع قلة الألفاظ، وتداخلت فيها الدلالات المعجمية والنحوية والبلاغية، فغدت مثالًا بارزًا على الإيجاز والإحكام في التعبير القرآني

20. يتجلى من مجموع هذه الظواهر جانب من جوانب الإعجاز البياني للقرآن الكريم؛ إذ اجتمع في الآية جمال اللفظ، ودقة المعنى، وقوة التصوير، وإحكام النظم، وحسن الترتيب، مع كثافة دلالية لا تستوعبها الألفاظ القليلة إلا بهذا النظم القرآني المعجز

---

[1]- سورة هود، الآية:44

2- الكتاب، سيبويه، تحقيق: د.إميل يعقوب، الطبعة الثانية، عام 2009م، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ج 2، ص 191

3- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، ابن مالك، تحقيق: محمد كامل بركات، الطبعة الأولى بدون تأريخ، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان–، ص 174

4- سورة العنكبوت، الآية: 15

5- سورة الحديد، الآية: 26

6- سورة الشورى، الآية: 3

7- سورة الأحزاب، الآية: 7

[8]- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، الطبعة الأولى، عام ١٣٠٦ه، المطبعة الخيرية، القاهرة – مصر–، مادة: قول، ج ٨، ص ٨٩

[9]- سورة ق، الآية: ١٨

10- سورة المجادلة، الآية: 8

11- سورة الحشر، الآية: 10

[12]- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، الطبعة الأولى، بدون التأريخ، مطبعة الميمنية، القاهرة –مصر–، ص ٤٢٥

13- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: يوسف الحمادي، الطبعة الثالثة، عام 2009م، دار المعرفة، بيروت –لبنان–، ج 2، ص 405

[14]- والإشمام: هو النطق بحركة صوتية تجمع بين الضمة والكسرة على التوالي السريع بغير مزج بينهما

[15]- مفاتيح الغيب المعروف بـــ"التفسير الكبير"، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي، الطبعة الرابعة، عام ٢٠٠١م، مكتبة علوم إسلامية، لاهور –باكستان–، ج ٦، ص ٣٥٣

[16]- شرح الأزهرية الجديد، د. عبد اللطيف خليف، على على كرسون، الطبعة الأولى، عام ٢٠٠٤م، مكتبة الأزهر الشريف، القاهرة –مصر–، ص ٢١١

[17]- وهو ينقسم إلى قسمين: **اسم الجنس الجمعي**: هو ما يتضمن معنى الجمع مع دلالته على الجنس وله مفرد مميّز عنه إما بالتاء أو ياء النسب، مثل: برتقال – برتقالة، تفاح – تفاحة، تمر – تمرة، يهود – يهودي، عرب – عربي، ترك – تركي

اسم الجنس الإفرادي: هو ما دلّ على الجنس، ويصلح للقليل منه والكثير، نحو: عسل، لبن، ماء، زيت

أمّا اسم الجمع: فهو اسم يشمل معنى الجمع، غير أنه لا مفرد له من لفظه، وإنما مفرده من معناه مثل: نساء – امرءة، خيل – فرس، جيش – جنديٌّ

18- الزَّرد من الطعام: اللَّيِّن، سريع الانحدار في الحلق

19- ازدرد: بَلَعَها بسرعة

20- هو الجمع الذي يدلّ على عدد لا يقل عن ثلاثة ولا يزيد عن عشرة، وله أربعة أوزانٍ وهي: أَفْعِلَة، أَفْعُلٌ، أَفْعَالٌ، وفِعْلَةٌ

21- هو الجمع الذي يدل على عدد لا يقل عن ثلاثة إلى ما نهاية له، وله العديد من الأوزان منها: مفَاعِلُ، مفَاعيل، فِعَالٌ، وفُعَّالٌ، فُعولٌ

22- سورة يوسف، الآية: 82

[23]- مفاتيح الغيب المعروف بـــ"التفسير الكبير"، ج ٦، ص ٣٥٣

24- سورة الرعد، الآية: 8

25- سورة المزمل، الآية: 15-16

26- سورة النور، الآية: 35

27- سورة الفتح، الآية: 18

28- سورة التوبة، الآية: 40

29-سورة الأنفال، الآية: 64

30- سورة المائدة، الآية: 3

31- سورة العصر، الآية: 2

32- سورة النساء، الآية: 28

33- سورة البقرة، الآية: 2

34- سورة الأنبياء، الآية: 30

35- مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، تحقيق: نعيم زرزور، الطبعة الأولى، عام 1987م، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان-، ص ٥٣٠

36- سورة هود، الآية: 44

37- سورة هود، الآية: 44

38- سورة هود، الآية: 44

39- سورة آل عمران، الآية: 54

40- سورة هود، الآية: 123

41- سورة الأعراف، الآية: 54

42- سورة الإسراء، الآية: 85

43- سورة هود، الآية: 40

44- سورة هود، الآية: 38، ومعنى الآية: فامتثل أمر ربه، وجعل يصنع الفلك، وكلّما مرّ عليه جماعة من كبراء قومه سخروا منه، قال لهم نوح: إن تسخروا منا في هذه الساعة فإنا نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرَقُ في الدنيا والخزي في الآخرة، أو إن حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فإنا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه، فأنتم

أولى بالسخرية منا، إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم، واستجهالكم أقبح وأشد؛ لأنكم لا تستجهلون إلا لأجل الجهل بحقيقة الأمر، والاغترار بظاهر

الحال، كما هو عادة الأطفال.

45- سورة هود، الآية: 40

46- سورة هود، الآية: ٤١،٤٢

47- سورة الحج، الآية: 65

48- سورة يونس، الآية: 22

49- سورة الفتح، الآية: 29، معنى الآية: فاستقم وتكامل على سيقانه التي يعلو عليها

50- سورة التوبة، الآية: 19

51- سورة البقرة، الآية: 29

52- سورة الزخرف، الآية: 13

53- سورة طه، الآية: 5

[54]– معالم التنزيل في تفسير القرآن المعروف بـ"التفسير البغوي" بهامش الخازن، الحسين بن مسعود البغوي، الطبعة الثانية، عام ١٣٧٥ه، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ج ٢، ص ٢٣٨، ٢٣٧

55– تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الرابعة عام 1990م، دار الكتاب العربي، القاهرة –مصر–، ج 2، ص 261–262

[56]– قال مجاهد: تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت، وتواضع هو لله فلم يغرق، واستوت عليه سفينة نوح

[57]– جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بـ"تفسير الطبري" محمد بن جرير الطبري، الطبعة الثالثة، عام ١٣٨٨ه، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة –مصر–، ج ١٢، ص ٤٨

[58]– مفتاح العلوم، ص ٥٢٩

[59]– مفاتيح الغيب المعروف بـ"التفسير الكبير"، ج ٦، ص ٣٥٣

60– سورة هود، الآية: 60

61– سورة هود، الآية: 68

62– سورة هود، الآية: 95

[63]– تنوير المقباس المعروف بـ"تفسير ابن عباس"، أبو طاهر بن يعقوب الفيروز آبادي، الطبعة الأولى، عام ٢٠٠١م، دار الفكر، بيروت –لبنان–، ص ٢٢٦

[64]– المفردات في غريب القرآن، ص ٥٣

[65]– تاج اللغة وصحاح العربية، مادة بعد، ج ٢، ص ٤٤٨

66– سورة هود، الآية: 95

67– سورة الشعراء، الآية: 90

68– سورة الحجرات، الآية: 11

[69]– تاج اللغة وصحاح العربية، مادة قوم، ج ٥، ص ٢٠١٦

[70]– لسان العرب، ابن منظور، الطبعة الأولى، بدون التأريخ، دار صادر، بيروت –لبنان–، مادة: حور، ج ١٢، ص ٣٧٣

71– سورة هود، الآية: 18–19

72– سورة الشورى، الآية: 40

73– سورة الشورى، الآية: 41

74– سورة القصص، الآية: 16

75– سورة فاطر، الآية: 32

76– سورة هود، الآية: 48

77– والمراد من المانع عن العطف عدم قصد تشريك الجملتين في الحكم؛ لقيام مانع، كقوله –تعالى–: [وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ] (سورة البقرة، 14 –15)، لا يصح في هذه الآية الكريمة عطف "اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ" على "إِنَّا مَعَكُمْ" لاقتضائه أن استهزاء الله بهم مقيّد بحال خلوهم إلى شياطينهم، مع أن استهزاء الله بهم دائم غير مقيد بحال الخلود

78– سورة هود، الآية: 48

79- سورة هود، الآية: 48

80- سورة هود، الآية: 47

81- سورة هود، الآية: 46

82- سورة هود، الآية: 45

83- سورة القمر، الآية: 11-12، ومعنى الآية: فأجبنا دعاءه، ففتحنا أبواب السماء بماء كثير متدفق، وشققنا الأرض عيوناً متفجرة بالماء، فالتقى ماء السماء وماء الأرض على إهلاكهم الذي قدّره الله لهم؛ جزاء شركهم

84- سورة سبأ، الآية: 16، ومعنى الآية: فأعرضوا عن أمر الله وشكره وكذبوا الرسل، فأرسلنا عليهم السيل الجارف الشديد الذي خرّب السد وأغرق البساتين، وبدّلناهم بجنتيهم المثمرتين جنتين ذواتي أُكُل خمط، وهو الثمر المر الكريه الطعم، وأثل وهو شجر شبيه الطّرفاء لا ثمر له، وقليل من شجر النّبق كثير الشوك

85 – الجناس: أن يتشابه اللفظان في النطق ويختلفا في المعنى، وهو نوعان: تام: وهو ما اتفق فيه اللفظان في أمور أربعة هي: نوع الحروف، وشكلها، وعددها، وترتيبها، كما في قوله –تعالى–: **[وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ]** (الروم، الآية: 55)، غير تام: وهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد من الأمور المتقدِّمة، كما في قوله –تعالى–: **[فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ]** (الضحى، الآية: 9-10)

86 – الدر المنثور في التفسير المأثور، جلال الدين السيوطي، الطبعة الأولى، عام 2011م.. مطبعة محمد أمين دمج، بيروت – لبنان – ج 6، ص 134

87- مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، تحقيق: نعيم زرزور، الطبعة الأولى، عام 1987م، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان–، ص ٥٢٩

88- سورة هود، الآية: 40

89- سورة الزخرف، الآية: 12، ومعنى الآية: والذي خلق الأصناف كلها من حيوان ونبات، وجعل لكم من السفن ما تركبون في البحر، ومن البهائم كالإبل والخيل والبغال والحمير ما تركبون في البر

90- سورة الزخرف، الآية: 13، ومعنى الآية: لكي تستووا على ظهور ما تركبون، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا ركبتم عليه، وتقولوا: الحمد لله الذي سخّر لنا هذا، وما كنا له مطيقين، ولتقولوا أيضًا: وإنا إلى ربنا بعد مماتنا لصائرون إليه راجعون، وفي هذا بيان أن الله المنعم على عباده بشتى النعم، هو المستحق للعبادة في كل حالٍ

91- سورة الفتح، الآية: 29

92- الدر المنثور في التفسير المأثور، جلال الدين السيوطي، ج 3، ص 335

93- سورة هود، الآية: 37

94- سورة المؤمنون، الآية: 27

95- سورة هود، الآية: 41

96- سورة مريم، الآية: 52

97- الدر المنثور في التفسير المأثور، جلال الدين السيوطي، ج 3، ص 335

98- (ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) هذا النص رواه مسلم

99- كما في قوله -تعالى-: [وَيُدخِلُهُمُ ٱلجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُم] (محمد، الآية: 6)، يصح فيه المعنيان من المعرفة والعَرْف الذي هو الطِيب، فيصح أن يراد: وصفها وبيّنها وشوّقهم إليها، ويصحُ أن يراد: طيّبها وزيّنها، (طعام معرف أي: مطيب)، وبأسلوب آخر: ويدخلهم بعد ذلك الجنةَ يوم القيامة، ويهديهم إلى بيوتهم ومساكنهم فيها، بحيث لا يخطئونها، حتى لكأنهم يقيمون فيها منذ خلقوا، وذلك كله بإلهام من الله -تعالى- لهم

100- كما في قول الله -سبحانه وتعالى-: [وَٱلنَّجمُ وَٱلشَّجَرُ يَسجُدَانِ] (الرحمن، الآية: 6)، المراد من النجم في هذه الآية الكريمة نجم الأرض وهو: ما لا ساق له من النبات، والشجر: ما له ساق، فأراد البعيد دون القريب، إذ الفهم يسبق إلى نجم السماء

101- سورة هود، الآية: 95

102- سورة البقرة، الآية: 61

103- سورة هود، الآية: 95

[104]- الكشاف، ج ٢، ص ٤٠٦

105- سورة هود، الآية: 25

106- سورة هود، الآية: ٢٧

[107]- سورة هود، الآية: ٢٨

[108]- سورة هود، الآية: ٢٩

[109]- سورة هود، الآية: ٣٠

[110]- سورة هود، الآية: ٣٦

[111]- سورة هود، الآية: ٣٨

112- سورة هود، الآية: 60

113- سورة هود، الآية: 38

114- سورة الشعراء، الآية: 105

115- سورة الشعراء، الآية: 160

116- سورة الحج، الآية: 42-43

117- سورة الأنعام، الآية: 66

118- سورة البقرة، الآية: 13

119- سورة النساء، الآية: 54

120- سورة هود، الآية: 33

[121]- مفتاح العلوم، يوسف بن محمد بن علي السكاكي، الطبعة الأولى، عام 2000م، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان-، ص 529

122- سورة الكهف، الآية: 49

123- سورة البقرة، الآية: 179

124- سورة يوسف، الآية: 82

125- وهو أن يأتي المتكلم بلفظ قريب من المعنى المقصود يقرّر ذلك المعنى به، ومثّله بقوله -تعالى-: **[وَٱستَوَت عَلَى ٱلجُودِيِّ]** قال: فإنه عبر عن استقرارها بهذا المكان استقرارًا متمكنًا بلفظ قريب من لفظ المعنى المقصود

126- سورة هود، الآية: 44

127- النهر الماد من البحر هامش البحر المحيط، محمد بن يوسف بن علي بن حيان الشهير بأبي حيان، الطبعة الأولى عام 1993م، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان-، ج 5، ص 227

128- سورة طه، الآية 78، معنى الآية: أي: بعد أن علم فرعون بخروج موسى وبني إسرائيل من مصر، جمع جنوده وأسرع في طلب موسى ومن معه، فكانت نتيجة ذلك، أن أغرق الله -تعالى- فرعون وجنوده في البحر، والتعبير بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: **[فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱليَمِّ مَا غَشِيَهُم]** يدل على تعظيم ما غشيهم وتهويله، أي: فعلاهم وغمرهم من ماء البحر ما لا يعلم كنهه إلا الله -تعالى- بحيث صاروا جميعًا في طيات أمواجه، ولو أردت تفصيل ما أفاده الموصول فقلت: غشيهم من اليم أمور عظيمة مبهم أمرها، فهذا لا يفيد ما أفاده الاسم الموصول من تفخيم وتهويل، فقد أفاد ما لا يكتنهه النعت ولا يحيط به الوصف

129- كما في قوله -تعالى-: **[هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ]**، (الرحمن ، الآية: 60)

130- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني، أبو داود، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، الطبعة الأولى عام 2009م، دار الرسالة العالمية، القاهرة، مصر، ج 5، ص 85

131- سورة التوبة، الآية: 82

132- الائتلاف: أن تكون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد منه، فإن كان فخمًا كانت ألفاظه فخمة، أو غريبًا فغريبة، أو متداولًا فمتداولة أو متوسطًا بين الغرابة والاستعمال فكذلك

133- فنون البلاغة، حسين بن أحمد المرصفي، تحقيق: د. رفعت علي محمد، الطبعة الأولى، عام ٢٠٢٤م، للنشر والتوزيع كشيدة، القاهرة -مصر-، ص ٣٠١

134 - الكشاف، ج ٢، ص ٤٠٦

135 - البحر المحيط، ج ٥، ص ٢٩٨

136- غرائب التفسير وعجائب التأويل، محمود بن حمزه الكرماني، تحقيق: الدكتور شران سركال يونس العجلي، الطبعة الأولى، بدون التأريخ، مؤسسة علوم القرآن، بيروت -لبنان-، ج ١، ص ٥٠٧